ندوة ضرب العراق والشرعية الدولية

الأستاذ الدكتور محمد كمال إمام

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق

جامعة الإسكندرية

بالنسبة للوضع الفقهي حول موضوع العراق نعتبر أن كل ما قيل من السادة المشاركين في الندوة إنما هو بمثابة توصيف للنازلة العراقية، فنحن أمام نازلة أى أمام قضية من القضايا التي تؤثر في واقع الأمة، سواء على المستوى السياسي، أو على المستوى الاقتصادي، أو على المستوى الاجتماعي، ومطلوب منا نحن المسلمين أن نبين موقف الشريعة الإسلامية من هذه النازلة. لأن موقف الشريعة الإسلامية من الحرب واضح، فالسلام هو الهدف الأول والأخير لكل القضايا الإنسانية حينما يحتك الإسلام مع الغير، فالإسلام في احتكاكه مع الآخر يقوم على فكرة أن السلام هو الأصل.

وفيما يتعلق بالنازلة العراقية نحن أمام أمرين كل منهما يحتاج إلى حكم، **الأمر الأول:** يتعلق بمدى شرعية قيام الولايات المتحدة بضرب العراق في الحالة الراهنة، وهذا أمر يتعلق بتوصيف القانون الدولى لكى يبين هل الواقعة واقعة عدوان أم لا؟

وخـبراء القـانون الدولـي والقرارات الدولية التي صدرت من الأمـم المتحدة تقرر أن الولايات المتحدة لا تملك حق ضرب العراق وإلا كان ذلك نوعا من العدوان من منظور القانون الدولي.

فـإذا قـررت القوانيـن الدولـية أن ضرب العراق يمثل خرقا للمواثـيق الدولـية، فإنـه يمثل خرقا لقواعد الشريعة الإسلامية ليس باعتبارها دولة إسلامية، ولكن باعتبارها عضوا في منظومة العلاقات الدولية.

والحقـيقة الثانـية: مـاذا تستهدف الولايات المتحدة من ضرب العـراق؟ وقـد قـرر الجميع أن الولايات المتحدة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي تنتهز الفوضى الدولية لتقود العالم إلى مخاطر اللاعقل، فهي تقـود العالم من خلال رؤية وحيدة ومنتقدة حتى من داخلها، والهدف من ذلك أمران:

١- السيطرة على النفط، والتي كانت حرب الخليج الأولى استدراجا للمنطقة لتحقيق هذا الهدف، ولقد قرأت تقريرا استراتيجيا مكتوبا ١٩٨١ يحـدد قوة الانتشار السريع في الولايات المتحدة، ومن أيـن تبدأ هذه القوة؟ ومن منطقة العراق بالذات لضرب الكويت ثم طبق ذلك عام ١٩٩٠، ١٩٩١م، فاستدرجت المنطقة بأكملها للدخـول في حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل من أجل الاستيلاء على النفط، ونفس الشيء قد حدث في حرب أفغانستان، والهدف

بـترول بحر قزوين حتى تكون أمريكا هى المحدد الوحيد لسعر البترول في العالم.

٢- إعـادة ترتيـب الأوراق في المنطقة العربية والإسلامية ترتيبا يخدم فكرة الشرق أوسطية والمصالح الأمريكية، وعلى قمة ذلك الوجـود الإسـرائيلي في أرض فلسطين، وتحول الدول العربية إلى دويلات صغيرة ضعيفة لا تستطيع الحركة.

وما هو موقف الفقه الإسلامي من هذه النازلة؟ هل يستطيع فقيه إسـلامي واحد أن يقول: إن السيطرة على ثروات المسلمين، أو على ثـروات العـالم لصالح منطقة أو دولة أو فرد يكون جائزا من وجهة نظـر الشـريعة الإسلامية، فهذا نوع من الاغتصاب الدولى لمصادر الـثروات فـي الـدول والشعوب لمصلحة الهيمنة الغربية مركزة في الولايات المتحدة الأمريكية.

فـالعدوان مجـرم في كل الأديان في ديننا وفي المسيحية وفي اليهودية، فالحكم الشرعي لأية ضربة أمريكية على العراق لا سند لها في كل الأديان، وإنما هى غطرسة القوى إذ أنها تريد أن تجعل العالم ذيـلا لهـا، والناس حسب قدراتهم، وينبغى للأمة الإسلامية ألا تكون ذيلا.

وبعـيدا عـن الأطر العامة، والتي لا يختلف عليها اثنان كيف يمكنـنا نحـن المسلمين طبقا للشرع الإسلامي أن نتعامل مع النازلة

وهـذه الطامة الكبرى؟ هل نقف ضد الولايات المتحدة الأمريكية وهل نحـارب مـع العـراق؟ وهل نفتح حدودنا لكى تدخل كل القوات من جمـيع أنحاء العالم؟ هذه هى التداعيات التي ينبغى أن نعرف حكمها من وجهة نظر الشريعة الإسلامية.

وهنا يحضرني أمران في مسيرة الإسلام السياسية، فالرسول ﷺ فـي صـلح الحديبية قبل شروطاً مجحفة في هذه المعاهدة ما رضى عنها أحد من المسلمين الذين كانوا معه لأنهم يرون أنهم يعطون الدنية في دينهم، ومع ذلك فإن رسول الله ﷺ نظر إلى مقاصد الشريعة، وأن حماية النفس أولاً، ثم حماية الدين، ثم حماية المال، فنظر إلى منظومة القواعـد أو المقاصـد الشرعية، ورأى أن حقن الدماء هدف أساسي ورئيسـي رغم اختلال شروط المعاهدة، ومع أن النبى ﷺ لم يكن في موقـف الضعف في صلح الحديبية، وإنما كان في موقع القوة، ونحن الآن لسنا في موقع القوة، بل إننا في أدنى درجات القوة التي عرفناها علـى امـتداد تاريخنا كله فنحن ضعفاء سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وعسكريا وتعليميا وإعلاميا.

فنحـن في أدنى درجات ضعفنا على امتداد تاريخنا كله فينبغي علينا أن نستخدم ما بقى لدينا من أوراق، وننظر إلى الخريطة الدولية لـنعرف مـا يمكننا أن نؤثر به على الولايات المتحدة الأمريكية التي لديها تريليون من الأموال العربية تستثمر هناك.

فلابـد مـن محاولة فتح ثغرة في أذن المؤسستين الكبيرتين في العـالم، الولايـات المتحدة، والاتحاد الأوروبي، فالإسلام يدعونا إلى حقـن الدمـاء ولو بشروط مجحفة، حتى لا يحدث ما يجعل المنطقة تتخلف على مدى قرون عديدة، وهو أمر لا يرضاه أحد لأمته.

فلابـد مـن فتح الحوارات على كافة الجبهات للبحث عن أذن صـاغية لصـوت العقـل والمنطق، وهذه هى حركتنا الوحيدة التي نستطيع أن نقوم بها في ظل هذه الظروف.

وأتذكـر هـنا موقف حذيفة وابنه عندما جاءا إلى رسول الله ﷺ وقـالا إنك سوف تشن حرباً على الأعداء وبيننا وبينهم معاهدة، وهذه معـاهدة فردية بين حذيفة والأعداء فقالا ماذا نفعل يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وسلم: «نفى لهم عهدهم ونستعين بالله عليهم».

وهذا يعني أن الدولة التي بينها وبين الولايات المتحدة معاهدات لا تستطيع أن تفصم عراها بينها وبين أمريكا، فلا نستطيع أن نحملها أوزارا فـوق أوزارهـا بل نستطيع أن نقول: إن عليها أن تفى بالقدر الـذي لا يضـر بمصلحتها ولا بأمتها لكن لا تساعد في الحرب ولا تكون هى بوابة الحرب مع التزامها بالمعاهدات الدولية.

وأستطيع حصر ما سبق في أمرين:

(١) أن موقـف الولايات المتحدة من العراق لا تقره المواثيق الدولية وهـى واقعـة مقررة لظلم موجود وهى من وجهة نظر الشريعة الإسلامية عدوان ينبغى أن يرد صاحبه إذا أمكن رده.

(٢) علـــى الدول التي تربطها علاقات بالولايات المتحدة الأمريكية أن تتحســـس مواقع أقدامها، لأن الشريعة تطلب منها أن تبذل أقصى جهدها من أجل منع الحرب وحقن الدماء إذا لم تكن إراقة الدماء محققـــة لهـــدف شـــرعي، أو سيادة وطن، أو استبعاد مغير، أو اســـتنهاض أمة، لأن عصمة الدم تحتل في مقاصد الشريعة مكانة عالية ومساحة كبيرة.